الدولة والمواطنة : نحو مفهوم مركب للهوية الوطنية العراقية

نعيم حسين كزار

جامعة بابل / كلية الاداب

Naeen2006@yahoo.com

ظاهر محسن هاني

جامعة بابل / كلية الاداب

Daheer20052000@yahoo.com

الملخص

يؤثر شكل الدولة وهويتها على مجمل المسارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتسعى المنظومة السياسية بكل تياراتها الاسلامية والليبرالية الى المحافظة على بنية الدولة او احداث تغييرات معينة وفق برامج معدة ومدروسة اساساً لأحداث ذلك التغيير بما يتناسب وايدولوجيتها المطروحة ، على ان تكون تلك التغييرات لاتتنال من موضوع الهوية الوطنية العراقية هذه الهوية التي تعطي للفرد الاحساس بالانتماء الى الوطن الأم وتخلق لديه الحس الوطني وروح التضحية من اجل أمن وسلامة وطنه ، فالهوية الوطنية هي نتاج اجتماعي ثقافي تاريخي عام تمثل رمز الام ووحدتها .

الكلمات المفتاحية : الدولة ، المواطنة.

Abstract

Tather form of the state and its identity on the overall political, social and economic tracks, seeking the political system all the currents of Islamic and liberal to maintain the state structure or specific events changes according to prepared and well thought out programs mainly to the events of that change in proportion to the ideology at hand, that those be changes to Atnal of the subject of national identity Iraqi identity that gives the individual.

Key words: state , citizenship

المقدمة

لقد تناولت العديد من الأدبيات والكتابات العراقية إشكالية الهوية العراقية والدولة الوطنية على غرار الدولة المدنية المعاصرة التي تقوم على مبدأ فكرة المواطنة كأساس موضوعي لإدارة فوارق الهوية ، إلا أن معظم تلك الأدبيات لم تقدم حلولاً عملية حول كيفية بناء الدولة العراقية وفقاً لنموذج الدولة الوطنية أو ما يعرف بدولة المواطنة . وذلك ناتج عن الخلافات بين النخب السياسية والاجتماعية والثقافية حول الهوية العراقية في خطاباتهم السياسية والإعلامية والثقافية . وبسبب إشكالية موقع العراق الجغرافي ووسط طرفي نزاع تاريخي يمتد لمئات السنين ، الأمر الذي يثير إشكاليات تحديد الانتماء القومي للعراق في تحديد الشخصية العراقية ومن هي ؟ فضلاً عن تغييب فكرة المواطنة بقصد أو دون قصد في الأدبيات والتراث العراقي وهي الأسباب الأساسية في تأزيم إشكالية الهوية وبناء الدولة الوطنية في العراق .

الإشكالية

يؤثر شكل الدولة وهويتها على مجمل المسارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية...ولعل السياسية تبدو الميدان الأكثر تعبيراً عن هذا الواقع إذ تسعى الأحزاب السياسية في سبيل المحافظة على بنية الدولة أو تعمل على تغييرها عبر طرحها الأفكار والبرامج والرؤى التي تتناسب وبنيتها الايديولوجية ، فعلى المستوى السياسي يؤثر شكل الدولة وهويتها على المؤسسات الدستورية والعملية الانتخابية وتداول السلطة ، أما على المستوى الاقتصادي فيؤثر في السياسات الاقتصادية ومسارات التنمية ، أما على المستوى الاجتماعي فان تأثير شكل الدولة يبدو أعمق لأنها تتناول الحريات العامة والحريات الشخصية .

لقد حظي موضوع الهوية الوطنية، باهتمام متزايد لاسيما في السنوات الأخيرة ، لما تشكله من أهمية على المستويات السياسية والاجتماعية والأكاديمية كافة ، إذ ظهرت العديد من الدراسات والكتابات التي تناولت الهوية الوطنية العراقية ، من جوانب مختلفة ، وقد ساهمت هذه الدراسات بإلقاء الضوء على جوانب متنوعة ومختلفة في مسألة الهوية الوطنية العراقية .

والهوية الوطنية العراقية ، كغيرها من الهويات ، تنطوي بالأساس على معان ودلالات رمزية وثقافية وجماعية تعطي الفرد إحساساً بالانتماء إلى الجسم الأكبر، وتخلق لديه الاعتزاز بهذا الجسم الكبير، وهذه وظيفة مهمة للهوية الوطنية فضلاً عن فعالية الدولة التي تحتضن الهوية ، وتوفرها للدفاع عن أرضها ومجتمعها أو في تمتيتها الشاملة ، وإشباع الحاجات الأساسية لمواطنيها، وإقرار مبدأ العدالة للمواطن، وهذا المفهوم يشير إلى وجود بعد ذاتي وبعد جمعي للهوية ، وبعد آخر مرتبط بالدولة والسكان على حد سواء . فالهوية الوطنية هي نتاج اجتماعي ثقافي تاريخي عام وتمثل علاقة متكاملة، وتغطي مدى واسعاً للتصنيف ، وتعطي الناس شعوراً بأنهم مرتبطون ببعضهم برابط محدد وتتجاوز أحياناً كل الولاءات الطبقية ، لذلك فإن دراسة الأفكار المتعلقة بالهوية الوطنية والوطن تحتاج إلى إن تأخذ بالحسبان المعطيات والافتراضات الطبيعية بحيث تكون أكثر شمولاً ، ذلك أنه في اغلب الأحيان يدور التساؤل الآتي لماذا تحمل الأفكار والمعطيات المتعلقة بالوطن والهوية الوطنية الاتجاهات المعروفة عند اغلب المواطنين ، ولفهم الهوية الوطنية علينا طرح العديد من التساؤلات، لماذا يعد الدفاع عن الوطن والهوية الوطنية أمراً واجباً وطبيعياً ؟ ولماذا يعد الافتخار بالهوية الوطنية والانتماء إليها والتغني بها أمراً مهماً ؟ انه وبقدر أهمية هذه التساؤلات ، وبقدر أهمية الإجابة عليها أيضاً ، لأنها تتعلق بالوعي وبالاعتقاد الراسخ في العقل البشري سواء اكان واعياً ام غير واع ، قد تبدو الإجابة مرتكزة على مدى الاعتقاد بوجود الكيان السياسي الذي نطلق عليه اسم الوطن والاعتقاد بوجوده والذي يجمع الأفراد كافة الذين يعيشون به ويؤدي إلى تدعيم الشعور بالانتماء إلى فكرة الكيان السياسي والاجتماعي والجغرافي للوطن ، وبالتالي يحرك المشاعر والعواطف والأحاسيس نحوه ، ويجعل من الفرد قادراً على تحريك مكانته الشخصية وهويته^١.

المحاور :

١- في مفهوم الدولة

٢- مبادئ وأبعاد المواطنة

٣- مؤشرات الهوية ودلالاتها

٤- أزمة الهوية وبناء دولة المواطنة

أولاً : في مفهوم الدولة: لقد شغل موضوع الدولة حيزاً واسعاً ومهماً في مراحل تطور الفكر الاجتماعي والسياسي ؛ لكونها المحل القانوني لممارسة النشاط السياسي عبر الديمقراطية ، والنشاط الاجتماعي عبر الناشطين الاجتماعيين .

فالدولة لغة في لسان العرب : هي اسم الشيء الذي يتداول ، والدولة الفعل والانتقال من حال إلى حال ، فنلاحظ انه مع كونها اسماً فهي فعل متحرك منتقل وليست حالة ثابتة كما في المعنى الأوربي ، فمصطلح State في الانكليزية او Etat في الفرنسية مستمدة من الأصل اللاتيني Status وفعله State الذي يقابله

¹ - علي الطراح . الأوطان والهويات الوطنية: إشكالية علاقة الناس بالأوطان ، بحث منشور في كتاب " الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام " ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٢ ، ص ١١٢ .

الفعل Tostand في الانكليزية بمعنى يقف وينتصب ويصمد ويكون في موقف أو وضع معين ويظل قائماً أو نافذاً ساري المفعول ، كما جاء في معانيه المعجمية . بينما يرتبط المعنى اللغوي لمفهوم الدولة في العربية بفكرة تداول الغلبة والسيطرة بين قوم وقوم آخرين ، ينازعونهم في الحرب أو المال ، وهما أهم وظيفتين لسلطة الحكم في المجتمعات القديمة خاصة^١ .

ولعل أول من استعمل كلمة دولة بمفهومها الشائع في هذا العصر هو المفكر الايطالي نيكولا مكيافلي إذ وردت في السطر الأول من كتابه الأمير بهذه العبارة " كلها دول وهي أما جمهوريات أو إمارات " هذا المفهوم للدولة كان من الصعب ملاحظته في المصادر الأولى لكلمة الدولة . ذلك أن مكيافلي قد قصد باستعماله مصطلح دولة ، تحديد مفهوم الدولة كما هي معروفة الآن ، سواء أكانت جمهورية أو ملكية . كذلك عندما وصف إيطاليا كدولة مقسمة لعدة دول^٢ .

والدولة كما يعرفها جوزيف شتراير بأنها تلك القوة الاجتماعية المنظمة التي تملك سلطة قوية ، تلعو قانوناً فوق أية جماعة داخل المجتمع ، وعلى أي فرد من أفرادها ، ولها وحدها دون الأحزاب السياسية أو الجماعات الدينية أو التجمعات الاقتصادية حق القسر وطلب الطاعة على المواطنين ، وهنا يلخص ظهور الدولة بما يلي :

١- ظهور وحدات سياسية دائمة وثابتة ومستقرة جغرافياً .

٢- ظهور مؤسسات دائمة وغير شخصية .

٣- وجود موافقة عامة على ضرورة السلطة العليا وعلى نزعة الولاء التي تستحق لهذه السلطة من جانب رعاياها^٣ .

وللدولة مجموعة من المقومات الأساسية التي يمكن توضيحها بالآتي :

١- المقوم الأول : الشرعية الدستورية والسياسية ؛ فالشرعية الدستورية تقوم على أساس العقد الاختياري المبرم بين الحاكمين بعضهم مع بعض وبين الحاكمين والمحكومين لتنظيم الحياة العامة وتأمين سلامة المجتمع وخدمة المصلحة العامة . وأما الشرعية السياسية فهي تقوم على أساس التفويض الشعبي للسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية للقيام بمهامهم سواء بتشريع قوانين تخدم الجميع وتقيم العدالة والمساواة وتكفل الحريات وتحميها ، أم بتنفيذ هذه القوانين ، أم بالفصل في الخصومات والنزاعات فصلاً عادلاً .

٢- المقوم الثاني : السلطة العليا للشعب : فهي السلطة الأسمى وهي المنشئة للسلطات التفويضية والائتمانية الأخرى

٣- المقوم الثالث : السيادة للقانون : المعبر عنه بالإرادة الشعبية ، واهم مزية للقانون أن يكون عاماً يشمل الجميع ويحكم به الجميع ويخدم المصلحة العامة للجميع وليس مصالح شخصية .

٤- المقوم الرابع : لا سلطة من دون مسؤولية ولا مسؤولية من دون محاسبة ؛ فالسلطة التفويضية مقيدة بمقتضيات ما فوضت من أجله ، ومن ثم ، فهي تخضع للمحاسبة في حال تجاوزت حدود تفويضها أو أضرت بالمصلحة العامة أو لم تنفذ القانون تنفيذاً سليماً.

١ - د. سهيل عروسي . المجتمع المدني والدولة ، ط ١ ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٨ ، ص ١٢١ .

٢ - سليمان صالح الغويل . الدولة القومية ، ط ٢ ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، طرابلس ١٩٩٤ ، ص ٣٠ .

٣ - إبراهيم خليل العلاف . الدولة في الفكر الغربي الحديث ، مركز الحوار المتعدد ، العدد ٢٢٠٥ ، ٢٠٠٨ .

٥- المقوم الخامس : ضمان الحقوق لجميع المتعاقدين ؛ ذلك أن الحقوق والمصالح الخاصة محمية ضمناً وذلك الحرص على حفظ المصلحة العامة^١ .

باختصار فإن هدف الدولة هو البناء على نجاحنا كمجتمع منفتح ومتنوع ثقافياً وموحد في المستقبل المشترك ، والالتزام بأممتنا ومؤسساتها وحكم القانون . وتتعكس هذه الرؤية في أربعة مبادئ لسياسة التعددية الثقافية ، وهي :

١- مسؤوليات الجميع : واجب المواطنة يفرض على كل فرد دعم هذه البنى والمبادئ التي تؤمن حريتنا ومساواتنا ، وتضمن ازدهار التنوع في مجتمعنا .

٢- العدالة لكل شخص : المساواة في المعاملة والفرص هي حق لكل مواطن . وتتيح المساواة الاجتماعية لنا المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وذلك بعيداً عن كل أشكال التمييز العنصري أو الثقافي أو الديني أو اللغوي أو الجنس أو مكان الولادة أو غيرها .

٣- امتيازات للجميع : الجميع يستفيد من التنوع المنتج بما يحققه من عائدات ثقافية واجتماعية واقتصادية ناجمة عن التنوع في التركيبة السكانية^٢ .

ثانياً : مبادئ وأبعاد المواطنة

تعد المواطنة أوسع مدى من منطوق الكلمة ، فالمواطنة مشتقة من الوطن ومادام الوطن هو القضية وهو الأصل ؛ فإن كلمة المواطنة يحتويها إطار أوسع وهو الدولة الوطنية^٣ .

فالمواطنة Citizenship هي صفة المواطن والتي تحدد حقوقه وواجباته . ويعرف الفرد حقوقه ويؤدي واجباته عن طريق التربية الوطنية . وتتميز المواطنة بنوع خاص من ولاء المواطن لوطنه وخدمته في أوقات السلم والحرب والتعاون مع المواطنين الآخرين عن طريق العمل المؤسسي والفردى الرسمي والتطوعي في تحقيق الأهداف التي يصبو إليها الجميع وتوحد من اجلها الجهود وترسم الخطط وتوضع الموازنات^٤ .

والإنسان في المجتمع كي يتصف بالمواطنة عليه التمتع بجملة من الخصائص والفضائل ومنها مشاعر الإقدام والجرأة والعدل والإنصاف ومشاعر التحضر والكياسة والتسامح ومشاعر التضامن والولاء والإحساس بالانتماء ، وتتجسد تلك الخصائص والمشاعر في عقل الإنسان ووجدانه كي يتصف بالمواطنة الحقيقية ؛ وهذا يتمثل وعيه بالمسار التاريخي للمجتمع وعلاقات ذلك التاريخ بالديمقراطية والمدنية ومسيرة حرية الإنسان في المجتمع^٥ .

وبفعل التطور الحاصل في التنظير لفكرة دولة المواطنة ثمة جملة من المبادئ التي يمكن أن تركز عليها هذه الفكرة يمكن إيرادها على الشكل التالي^٦ :

١ - أحمد بو عشرين . مفهوم الدولة المدنية في الفكر الغربي والإسلامي ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، قطر ، ٢٠١٤ ، ص ٢٠ - ٢١ .

٢ - علي حمدان . إشكالية الهوية والانتماء ، المركز الاستراتيجي العربي للدراسات السياسية ، ط ١ ، سيدني ، ٢٠٠٥ ، ص ٢٦ .

٣ - ظاهر محسن هاني . مفهوم المواطنة لدى طلبة الجامعة ، مجلة جامعة بابل ، المجلد ١٨ ، العدد ١ ، جامعة بابل ، ٢٠١٠ ، ص ٢٧٢ .

٤ - احمد زكي بدوي . معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٦٠ .

٥ - يوسف خليل يوسف . دور التربية في تكوين المواطن الصالح بمرحلة التعليم الأساسي ، مجلة التربية ، السنة ٤٦ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٣١ .

٦ - د. غسان طه . المواطنة ومشروع الدولة العادلة في لبنان ، بحث في كتاب المواطنة والدولة مقاربات واتجاهات ، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية ، بيروت ، ٢٠١٠ ، ص ٢١ .

١- تقوم المواطنة على أساس الانخراط العميق في مبادئ عامة واحدة قوامها الحقوق والواجبات التي يتساوى فيها المواطنون بوصفهم أفراداً قبل أن يكونوا جماعات وطوائف وأدياناً.

٢- تقوم المواطنة على أساس الولاء للدولة التي توّطر المواطنين بإطارها العام والكلي فيما يتحول الولاء إلى الجماعات التقليدية إلى ولاء ثانوي.

٣- تستلزم المواطنة وجود الحرية بمستوياتها المتنوعة السياسية وأصلها حق الانتخاب والترشح وتكوين الجماعات السياسية، وأن الشعب مصدر السلطة والحرية الدينية التي تستلزم احترام العقائد والأديان داخل الدولة نفسها، ثم الحرية الاقتصادية القائمة على مبادئ الحرية في الكسب والعيش في حدود القوانين التي ترعاها الدولة.

٤- تقوم المواطنة على أساس تنظيم الخلاف عبر تحديدها لآليات الوصول إلى السلطة التي يكون الشعب مصدرها وليس شيئاً آخر.

٥- تستند المواطنة إلى فكرة أن الشعب هو مصدر القوانين والتشريعات وليست الأديان.

٦- تعتبر المواطنة أن المؤسسات تعلق على الأفراد، بوصفها مؤسسات عامة تتجاوز انتماءاتهم السياسية والاعتقادية.

٧- تنظم دولة المواطنة سلطة الدولة كونها صاحبة السيادة على أرضها ومواطنيها.

٨- لا تخرج دولة المواطنة عن مفهوم الدين وغاياته، ويعد منظورها أن علاقة الفرد بخالقه مكفولة باحترام الدولة لتطبيق الشرائع الدينية، بل هي تجسد إحدى غايات الدين بتأكيد المساواة بين البشر. وهي على هذه الحال تركز على أبعاد إنسانية وأخلاقية واجتماعية.

ومن هنا فقد تعددت أبعاد المواطنة ، فلم تعد مقتصرة على جوانب محددة وبالتالي فإنه يمكن تحديد المواطنة في ثلاثة أبعاد أساسية تتمثل فيما يلي :

١- البعد الفلسفي والقيمي : ما دامت المواطنة إنتاجاً ثقافياً إنسانياً ، فهي تنطلق من مرجعية قيمية تستوحي دلالتها من مفهوم الحرية ، والخير ، والهوية ، والمصير ، والوجود المشترك .

٢- البعد السياسي القانوني : إذ تتحدد المواطنة كمجموعة من القواعد والمعايير التنظيمية والسلوكية الاجتماعية داخل المجتمع .

٣- البعد الاجتماعي والثقافي : وهو أن المواطنة تصبح كمحدد لمنظومة التمثلات والسلوكيات والعلاقات والقيم الاجتماعية ، بحيث تصبح المواطنة كمرجعية معيارية وقيمية اجتماعية ، وكثقافة نظام^١ .

ثالثاً : مؤشرات الهوية الوطنية ودلالاتها

اختلف الباحثون والمفكرون في وضع تصور واحد لمفهوم الهوية ، فهي أما أن تكون محصلة العقيدة والفكر واللغة والتاريخ والفنون والأدب والتراث والقيم والأخلاق وغيرها ، وهي ما تميز المجتمع عن المجتمعات الأخرى .

فالهوية كمصطلح عربي تقابله كلمة Identity في اللغة الانكليزية ، و Identite في اللغة الفرنسية ، وهو من أصل لاتيني ويعني الشيء نفسه أو الشيء الذي هو ما هو عليه ، أي إن الشيء له الطبيعة نفسها لا لشيء آخر^١ .

¹ - رائد محمد إسماعيل أبو الكاس . تصور مقترح لتنمية قيم المواطنة لدى تلاميذ المرحلة الثانوية بفلسطين في مواجهة سياسات الاحتلال الإسرائيلي . أطروحة دكتوراه منشورة ، جامعة القاهرة ، معهد الدراسات التربوية ، قسم أصول التربية ، ٢٠١٤ ، ص ٣٥ .

أما مفهوم الهوية من حيث الدلالة اللغوية هي كلمة مركبة من ضمير الغائب " هو " مضاف إليه ياء التسمية ، لتدل الكلمة على ماهية الشخص أو الشيء المعني كما هو في الواقع بخصائصه ومميزاته التي يعرف بها . والهوية هي اسم الكيان أو الوجود على حاله ، أي وجود الشخص أو لشعب أو الأمة كما هي بناء على مقومات ومواصفات وخصائص معينة تمكن من معرفة صاحب الهوية بعينه دون اشتباه مع أمثاله من الأشباه^٢.

وفي علم الاجتماع مفهوم الهوية متعدد الجوانب ، ويمكن مقارنته من عدة زوايا ، فالهوية بشكل عام تتعلق بفهم الناس وتصورهم لأنفسهم ولما يعتقدون أنه مهم في حياتهم ، إذ إن هذا الفهم يتشكل انطلاقاً من سميات محددة تتخذ مرتبة الأولوية على غيرها من مصادر المعنى والدلالة ، ومن مصادر الهوية هذه الجنسية ، التوجه الجنسي ، الجنسية ، أو المنطلقات الأثنية ، الطبقة الاجتماعية ، الانحدار الطبقي والمركز^٣. وهنا تنشر بعض الدراسات أن للهوية الوطنية مؤشرات ودلالات عديدة وقد تناولها الناس في حياتهم ومن هذه المؤشرات والدلالات للهوية الوطنية^٤ :

١. مكان الولادة .
٢. روابط الأسلاف والأجداد .
٣. الانتماء القبلي .
٤. الالتزام بالعادات والتقاليد والأعراف.
٥. الالتزام بالقوانين .
٦. مكان الإقامة.
٧. الالتزام بالزى التقليدي .
٨. طول مدة الإقامة .
٩. الأسماء والألقاب.
١٠. النشأة والتربية .
١١. اللهجة .
١٢. الشكل والمظهر الخارجي

وتستعمل تلك المؤشرات للهوية عندما ينظر الناس إلى غيرهم ويحاولون التعبير عن هويتهم الوطنية عن طريق استخدام هذه المؤشرات و من الممكن أن تستخدم ضمن الوطن الواحد وبين أفراداه بهدف تمثيل الروابط الوطنية والثقافية وزيادة اللحمة والحس بالهوية الواحدة والمصير المشترك، تحديد هذه المؤشرات التي قد تستخدم جميعها أو بعضها ولكنها في النهاية تبقى من الدلالات التي تستخدم للتعبير عن الهوية.

^١ عفيف البوني . في الهوية القومية العربية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٥٧ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٥ .

^٢ كميل الحاج . الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص ٣ .

^٣ . ظاهر محسن هاني ، و احمد جاسم مطرود . الهوية العراقية بين المواجهة والخضوع ، بحث مقدم لمؤتمر كلية الآداب جامعة القادسية بعنوان " العقلية العراقية بين اكرامات الماضي وتحديات المستقبل (إشكالية التغيير في المجتمع العراقي) ، مجلة جامعة القادسية (عدد خاص) ، المجلد ١٦ ، العدد ٢ ، ٢٠١٣ ، ص ٤١٨ .

^٤ - غسان منير . معالم ومؤشرات الهوية الوطنية ومقاييسها ، الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٢ ، ص ١١٢ .

وتمثل الهوية الخصوصية التي تميز جماعة بشرية عن غيرها : كالعيش المشترك و العقيدة ، اللغة ، التاريخ والمصير المشترك ومن هنا فان الهوية الثقافية تحمل دلالتها من المحددات الأساسية لثقافة الأمة ، التي عبر عنها مونتكيو بروح الأمة لأنها تمثل رمز وحدتها واستمراريتها . بحيث تتفاعل عناصر هذه الهوية ضمن هوية مركزية أو أرضية مرجعية تتحدد وفق مرجعين :

١- الثقافة : إن الثقافة هي التي تمكن الفرد من التكيف والتوافق مع الجماعات الاجتماعية وتحقيق ذاته في إطار الجماعة والمؤسسات المجتمعية .

٢- الوطنية : تعبر الدولة الحديثة عما يسمى " بالهوية الوطنية " كأرضية مرجعية تشمل كل السمات الثقافية للأمة ، وتصبح بالتالي احد الدلالات الأساسية المحددة لهوية شعب يعيش ضمن إقليم جغرافي محدد ، إذ أصبح مفهوم المواطنة من رموز وحدة واستقرار الأمة وبإمكانه أن يستوعب كل الثقافات الفرعية^١ .

رابعاً : أزمة الهوية وبناء دولة المواطنة

يقوم مبدأ الهوية على أن الموجود هو ذاته ، أو ما هو عليه ، وانطلاقاً من ذلك فان مفهوم الهوية يتم ربطه دائماً بمفهوم الوحدة أي بحسب الطرح التقليدي الذي يركن إلى سكون الدلالة اللغوية ، الفراغ الذي يدوم في انسجام تام وفاتر بعيداً عن كل علاقة ، إلا انه ومن جهة أخرى يبدو أنه لا يحق لنا التفكير بالهوية انطلاقاً من معنى الوحدة المنسجمة لاسيما بعد ظهور الفارق بين النظريات الكلاسيكية والواقع المعاش، الذي يذهب باتجاه تكريس صيغ التعدد داخل هذه الهويات الموحدة والمنسجمة^٢ .

والقصد أن الهوية ، أي التصور الذي يكونه شعب ما عن ذاته ، لا قيمة لها إلا بقدر ما تساهم من القيم التي تركز عليها ، والعلاقات التي تشجع على بنائها ، والإيحاءات التي تثيرها في إعادة بناء الشخصية الفعلية المفككة أو المهتدة ، وبالتالي ضمان تفتحها واستقرارها . وهو ما لا يمكن أن يتحقق من دون قيام هذا البناء على الأسس نفسها التي تساهم في إدماجها في الحركة التاريخية وتعظيم مشاركتها في المغامرة الحضارية البشرية . والهوية التي لا تقود إلى مثل هذا البناء تتحول بسرعة إلى وهم محبط ، وتدفع الجمهور سريعاً نحو التخلي عنها ، والتوجه نحو خيارات مغايرة^٣ .

إن اتصاف المجتمع العراقي بالتلون الاجتماعي والقومي، انعكس على تشكيل هويته، وبما ان الموروثات الموجودة لدى اغلب العراقيين في التفكير والسلوك، هي في أساسها تتكون من الموروثات الطائفية والموروثات العشائرية. فان وجود هذا الأساس، اثر على عقلانية القيادات السياسية في مجال اللجوء إلى الحوار، بدلاً من العنف وسيادة نزعة الصراع ولمصلحة الطائفة أو العشيرة، بدلاً من البحث عن الحلول التي تقود إلى تحقيق البناء السياسي للدولة^٤ .

فقد تباعدت الهوية عن مجتمع ما وفي ظروف زمنية محددة ، ولكنها سرعان ما تعاود لبناء نفسها ، فالمجتمعات المأزومة تعاني خلاً تركيبياً في بنائها يقودها في بعض الأحيان إلى التفتك والتشردم تحت عناوين وهويات فرعية لا تقوى على الصمود والاستمرار لوحدها نتيجة للتزاحم المفترض فيما بينها ، أو مع محيطها الإقليمي . والعراق بعد ٩ / ٤ / ٢٠٠٣ وعند تعرضه للاحتلال والتدمير في بناء التحتية قد دخل مرحلة الخطر وأصبحت وحدته الوطنية مهددة بالتشظى وغابت الهوية الوطنية تحت عناوين الهويات

^١ - محمد العربي ولد خليفة . المسألة الثقافية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ٢٠٠٣ ، ص ٩١ .

^٢ - مراد وهبة . المعجم الفلسفي ، ط ٣ ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ١٨٩ .

^٣ - د. برهان غليون . المحنة العربية : الدولة ضد الأمة ، ط ٣ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٣ ، ص ٥٩ .

^٤ - أنتوني كورد سمان . الاحتلال الأمريكي للعراق : المشهد الأخير ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص ٢٢ .

الفرعية القومية والدينية والطائفية. ولقد ساهمت القوى السياسية بمختلف اتجاهاتها على تفتيت الهوية الوطنية، وفي لقاء مع المفكر هاني فحص يقول أن الإسلام السياسي العراقي هو الذي يقود الشمولية الآن بعد أن كانت هناك شمولية الحزب الواحد ، إذ أن جميع هذه الأحزاب الإسلامية طائفية وان كانت ترفع شعارات الوحدة والتسامح والتسليم لهذه الأحزاب يعني التسليم لمبدأ الإقصاء والانغلاق ورفض الآخر^١ .

أن أزمة الهوية العراقية تعود إلى مجموعة العوامل الداخلية التي ترتبط بطبيعة المجتمع العراقي وخصوصياته، يضاف إلى ذلك السياسات التي اتبعت من قبل المركز السياسي. فعندما يصعب انصهار أفراد المجتمع كافة في بوتقة واحدة تتجاوز انتماءاتهم التقليدية الضيقة وتتغلب على آثار الانتقال إلى المجتمع العصري بتعقيداته المختلفة، بحيث يشعر الأفراد بالانتماء إلى ذلك المجتمع، فان شعور إحدى المجموعات المكونة للتركيبية الاجتماعية بما يسمى بـ (الحرمان النسبي) أي شعورهم بحرمانهم من الحقوق التي يتمتع بها أشخاص آخرون في المجتمع نفسه. فان كل آليات التي توضع لتدعيم البناء الوطني، سيصيبها الشلل و سيعترض هذا البناء إلى الانهيار^٢ .

وإذا ما تناولنا أزمة الهوية العراقية في دستور جمهورية العراق عام ٢٠٠٥ فقد نجد في الأطروحات المتقاطعة بين السياسيين ورجال الفكر الذين يحاولون إعادة صياغة أو تأسيس هوية موحدة تعني العراق . يقول الدكتور فالح عبد الجبار ؛ ثمة قلق في العالم العربي حول عروبة العراق ، ولهذا القلق إبعاد شتى منها ما هو وجيه وما هو ملتبس ، وفيها ما هو مغرض فالمحيط العربي يشعر بالقلق من وجهة العراق المستقبلية، فمخاطر حرب أهلية أو تقسيم أو أن يدير العراق ظهره إلى العالم العربي ، ففي البدء كانت الضجة حول أمركة العراق ولما فشل الأمريكيون في ضبط التطور على الجهة التي يرغبون باتجاه عراق ليبرالي اندلعت الضجة الكبرى حول عروبة العراق لما تضمنته المادة الثالثة من الباب الأول (العراق بلد متعدد القوميات والأديان والمذاهب ، وهو جزء من العالم الإسلامي ، والشعب العربي فيه جزء من الأمة العربية)^٣ .

"إن ما يميز المجتمع العراقي ، هو صفة تعددية مكوناته المنتظمة في دولة واحدة ولكن مع وجود مشكلة مهمة، إلا وهي افتقاد هذه المكونات لمبدأ التوافق ، الذي هو الأساس الذي يقوم عليه الإجماع والمتعلق في موضوع شكل الدولة والمصالح المشتركة . فمنذ قيام النظام السياسي وهو عاجز عن إدارة الاختلاف والتحكيم في أمر الصراع القائم بين الجماعات المختلفة. فتأجيج المنحى الطائفي من جهة والعشائرية من جهة أخرى ، فضلا عن الصراعات السياسية الناتجة عنها، تقف عائقاً أمام مجتمع سياسي أوسع من التماثل الاجتماعي. بعبارة ثانية ، أدت ظاهرة التعدد المجتمعي في العراق ، دوراً مؤثراً في حالة عدم الاستقرار السياسي ، لأن هذا التعدد لم يجر وفق مبدأ احترام الحقوق وحق المشاركة للجميع وفق منطق الإدارة السلمية للاختلاف، فتحوّلت الدولة نتيجة هذا الصراع إلى أداة لفرض صيغة التوافق القسري لخلق التجانس الاجتماعي والتوحيد السياسي بين الفرد والدولة ، توافق قابل للانفجار في أي لحظة، إذا ما اشتدت درجات القلق والتوتر داخل المجتمع^٤ .

^١ - حبيب صالح مهدي . دراسة في مفهوم الهوية ، مجلة مركز الدراسات الإقليمية ، العدد ٥ ، بغداد ، ٢٠١٣ ، ص ١١٥ .

^٢ - أسامة الغزالي حرب . مستقبل الصراع العربي - الإسرائيلي: مشروع استشراق مستقبل الوطن العربي، محور العرب والعالم ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ٣٤ .

^٣ - فالح عبد الجبار . التوافقية والدين والدولة وهوية العراق ، بحث في كتاب (مآزق الدستور) ، ط ١ ، معهد الدراسات الإستراتيجية ، بيروت ، ٢٠٠٦ ، ص ١٠٧ .

^٤ - سلامة غسان . قوة الدولة وضعفها: بحث في الثقافة السياسية العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ٢٠٠٢ ، ص ٢١٩ .

لذا فإن هذه التعددية في جذورها القبلية والعشائرية ، والتي تتجلى في شكل طائفي ديني، تمزق النسيج المجتمعي وتثير النزعات، التي تؤثر على خلق كيان مترابط ومتماسك ومستقر. وهو ضرورة لوجود الدولة، وفي محاولتها لخلق وتدعيم ثقافة سياسية ذات إطار قانوني وشرعي، قادرة على توفير ضمان الولاء للدولة، بدلاً من الولاء القبلي والطائفي^١.

إن اخطر ما يفكك المجتمع ويذهب به بعيداً ويحشره في خانة التمزق والانهايار ، هو عدم النظر إلى المجتمع من نظرة الكل دون النظرة الجزئية المقسمة ، فالعشيرة جزء من الوطن إلا أن الولاء لها مقابل الوطن معناه نشوء تحزبات وصراعات وجماعات تحاول بعثرة كل شيء ووضع القوالب الخاصة بها التي تمنحها الأمان والمصلحة الشخصية دون مصلحة الوطن والولاء له .

وذلك ما مر به المجتمع العراقي عبر مراحل حياته ، إذ أن العشائرية متجذرة فيه إلا إنها في تفاوت مستمر ، إذ أن قوتها معناه ضعف الدولة الراضية للولاء للعشيرة مقابل عدم الولاء للحكومة والوطن ، وضعفها معناه قوة الولاء للدولة دون العشيرة ، ومن حين لآخر لمحا مراحل المجتمع العراقي وهي مملوءة بتذبذب قوة العشائرية من مدة إلى أخرى ، إذ أن طغيان النزعة العشائرية قد يفضي إلى تفتت البنية المجتمعية القائمة على كيان الدولة .

لقد شهدت الدولة العراقية اندماج القبيلة بالمؤسسة العسكرية ، مما شجع على تداخل القيم والأعراف العشائرية بقيم وأعراف المؤسسة العسكرية والحياة الحضرية مع إنتاج أشكال من الاندماج والتماسك التقليدي الذي ساعد على تمركز السلطة في يد القبيلة وتحطيم الدولة البرلمانية التقليدية^٢.

ماذا بعد؟؟

إن الهوية الوطنية لا شك تواجه العديد من الإشكاليات المتشابكة نتيجة للظروف السياسية بالدرجة الأولى ، فضلاً عن ضعف مستوى الاندماج الاجتماعي ، الذي يظهر أحياناً ، إلا أنه لا بد من حل الإشكاليات كافة التي تواجه الهوية الوطنية و أصبحت ضرورة وطنية ملحة وشرطاً أساسياً لبناء الدولة الحديثة وعاملاً مهماً لمساعدة الدولة على مواجهة الانفتاح الإعلامي المتزايد وعولمة العالم بشكل يتجاوز حدود الدولة ، إلا أن ذلك لا يمنع من قيام الدولة بمجموعة من السياسات منها :

١- العمل على بناء هوية وطنية عراقية تقوم على التراث الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي أنتجته كافة الفئات الاجتماعية المشكّلة للبناء الاجتماعي العراقي والذي تراكم عبر السنوات الطويلة، ودمجه على أساس التجربة المشتركة الايجابية الفئات كافة.

٢- سياسات حكومية تقوم على مبادئ الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وسيادة القانون وبناء المؤسسات والابتعاد عن الفتوية والجغرافية .

٣- دمج مفاهيم الهوية الوطنية الجديدة في مناهج التربية الوطنية والمدنية على مستوى التعليم الأساسي والثانوي والجامعي.

٤- وضع سياسات تساعد على رفع مستوى الاندماج الاجتماعي لفئات المجتمع العراقي كافة.

٥- إبراز التنوع في التراث واعتباره مصدر إثراء لدعم مسيرة بناء الدولة العراقية الحديثة .

١ - محمد عابد الجابري . العقل السياسي العربي: محدداته وتحليلاته ، نقد العقل العربي، ط ٣ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص ١٣ .

٢ - أفراح جاسم محمد . إشكالية الهوية في المجتمع العراقي ، بحث مقدم لمؤتمر كلية الآداب جامعة القادسية بعنوان " العقلية العراقية بين اكراهات الماضي وتحديات المستقبل (إشكالية التغيير في المجتمع العراقي) ، مجلة جامعة القادسية (عدد خاص) ، المجلد ١٦ ، العدد ٢ ، ٢٠١٣ ، ص ١٨٣ .

٦- تعميق التجربة الديمقراطية باعتبارها تجربة تساعد على تحقيق مبدأ العدالة وتعمق المشاركة المواطنين كافة .

المصادر

- أحمد زكي بدوي . معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- إبراهيم خليل العلاف . الدولة في الفكر الغربي الحديث ، مركز الحوار المتمدن ، العدد ٢٢٠٥ ، ٢٠٠٨ .
- أحمد بو عشرين . مفهوم الدولة المدنية في الفكر الغربي والإسلامي ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، قطر ، ٢٠١٤ .
- أنتوني كورد سمان . الاحتلال الأمريكي للعراق : المشهد الأخير ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٧ .
- أسامة الغزالي حرب . مستقبل الصراع العربي - الإسرائيلي: مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، محور العرب والعالم ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٧ .
- أفراح جاسم محمد . إشكالية الهوية في المجتمع العراقي ، بحث مقدم لمؤتمر كلية الآداب جامعة القادسية بعنوان " العقلية العراقية بين اكرهات الماضي وتحديات المستقبل (إشكالية التغيير في المجتمع العراقي) ، مجلة جامعة القادسية (عدد خاص) ، المجلد ١٦ ، العدد ٢ ، ٢٠١٣ .
- د. برهان غليون . المحنة العربية : الدولة ضد الأمة ، ط ٣ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٣ .
- حبيب صالح مهدي . دراسة في مفهوم الهوية ، مجلة مركز الدراسات الإقليمية ، العدد ٥ ، بغداد ، ٢٠١٣ .
- رائد محمد إسماعيل أبو الكاس . تصور مقترح لتنمية قيم المواطنة لدى تلاميذ المرحلة الثانوية بفلسطين في مواجهة سياسات الاحتلال الإسرائيلي . أطروحة دكتوراه منشورة ، جامعة القاهرة ، معهد الدراسات التربوية ، قسم أصول التربية ، ٢٠١٤ .
- د. سهيل عروسي . المجتمع المدني والدولة ، ط ١ ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٨ .
- سليمان صالح الغويل . الدولة القومية ، ط ٢ ، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، طرابلس ، ١٩٩٤ .
- سلامة غسان . قوة الدولة وضعفها: بحث في الثقافة السياسية العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ٢٠٠٢ .
- ظاهر محسن هاني . مفهوم المواطنة لدى طلبة الجامعة ، مجلة جامعة بابل ، المجلد ١٨ ، العدد ١ ، جامعة بابل ، ٢٠١٠ .
- _____ ، و احمد جاسم مطرود . الهوية العراقية بين المواجهة والخضوع ، بحث مقدم لمؤتمر كلية الآداب جامعة القادسية بعنوان " العقلية العراقية بين اكرهات الماضي وتحديات المستقبل (إشكالية التغيير في المجتمع العراقي) ، مجلة جامعة القادسية (عدد خاص) ، المجلد ١٦ ، العدد ٢ ، ٢٠١٣ .
- علي الطراح . الأوطان والهويات الوطنية: إشكالية علاقة الناس بالأوطان ، بحث منشور في كتاب " الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام" ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٢ .
- علي حمدان . إشكالية الهوية والانتماء ، المركز الاسترالي العربي للدراسات السياسية ، ط ١ ، سيدني ، ٢٠٠٥ .

- عفيف البوني . في الهوية القومية العربية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٥٧ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- غسان منير . معالم ومؤشرات الهوية الوطنية ومقاييسها ، الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٢ .
- د. غسان طه . المواطنة ومشروع الدولة العادلة في لبنان ، بحث في كتاب المواطنة والدولة مقاربات واتجاهات ، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية ، بيروت ، ٢٠١٠ .
- فالح عبد الجبار . التوافقية والدين والدولة وهوية العراق ، بحث في كتاب (مأزق الدستور) ، ط ١ ، معهد الدراسات الإستراتيجية ، بيروت ، ٢٠٠٦ .
- كميل الحاج . الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
- محمد عابد الجابري . العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته ، نقد العقل العربي، ط ٣ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٥ .
- مراد وهبة . المعجم الفلسفي ، ط ٣ ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- يوسف خليل يوسف . دور التربية في تكوين المواطن الصالح بمرحلة التعليم الأساسي ، مجلة التربية ، السنة ٤٦ ، القاهرة ، ١٩٩٤ .